نَظَرِيَّةُ الخِلافةِ الإلهيّةِ في القُرآنِ وعلاقَتُها بالتَّنْمِيةِ البَشَرِية
(رؤية موضوعية)

طلال فائق مجبل الكمالي
باحث اسلامي متخصص
العتبة الحسينية المقدسة –كربلاء

فحوى البحث

بحث استدلالي معمّق يحاول فيه السيد الباحث، بيان علاقة التنمية البشرية بحقيقة استخلاف الله –سبحانه –الانسان في الارض وتسخير كل الاشياء لمصلحته، و انطلاقها من منطلقات الهية قرآنية مؤيدة تماماً لهذا النشاط.

و قد وجد الباحث أن التنمية البشرية منهج قرآني طرق شتى ابواب مجالات الحياة من خلال الفكرة و الفلسفة و من خلال الوقوف عند المبدأ القرآني للانسان و عمله كخليفة لله في الارض، و مبدأ لزوم عمارة الارض باحياء عناصرها و كذلك مبدأ التغيير و الإصلاح و غيرها من المبادئ التي توقفنا بأزاء عالم فسيح من الإنسجام المتكامل بين مفهوم التنمية البشرية و العقيدة الاسلامية.

● لم يكن تأكيد الباحث على مفردات المفهوم أو مضامين الرؤية الكونية نابعاً عن فراغ، إنما مبناه نابع من اعتقاده بأن جميع المضامين التي تنبثق لبناء الهيكل المعرفي بكافة جزئياته وتفرعاته مبني على أساسها إضافة إلى الجانب الفكري لأية فلسفة، ولهذا فان أي مفهوم أو مضمون لا بد أن تكون له مرجعية من قيم ومعتقدات تُلائم مناخ الرؤيا الكونية له، وبالتالي تؤثر أثرها على فهم الإنسان ورؤيته للمحاور الرئيسية وهي الإنسان، الحياة، الكون، كون الرؤية الكونية كانت وما زالت وظيفتها فلسفة تلك المحاور محاولة الاجابة على استفهامات متطلباتها، وما هي إلا حركة استدلالية استقرائية واستنباطية من النشاط الذهني والمعرفي للإنسان، تحاول هذه الحركة أن تُفعّل خطوات حركتها الذهنية الاستدلالية صعوداً ونزولاً من البدء بالجزئيات تارة لتنطلق للكليات، وتبدأ من الكليات لتصل إلى أدق التفرعات والتفاصيل تارة أخرى، لتكون كلتا الحركتين من الصعود والنزول طريقاً موصلاً للمعرفة وتطورها، حيث (عُدَّ التفتح الذهني عند الإنسان ذا علاقة بتطور المعارف)[1].

وما الحديث عن التنمية البشرية في القرآن الكريم الا لبيان وجهة نظر الإسلام عموماً والقرآن خصوصاً في تفسير ظاهرة التطور والإنماء والتغير الايجابي على وفق المنظور العام الذي تشكله العقيدة الإسلامية، أي الاطمئنان الى أن هذه الظاهرة منسجمة مع العقيدة الإسلامية ولا تتعارض مع منظومتها القيمّية بل هي تعمل بطولها ولا تتقاطع مع مبتنيات الرؤية الكونية التي يعد القرآن الكريم الركيزة الأساسية في بيان مضامينها وبيان علاقة ظاهرة التطور والتنمية البشرية بها.

وبهذا فإننا سَنَحصل على مفهوم معرفي أكده الإنسان استدلالياً وولج به إلى النص الإلهي القرآني، وبذلك يعني إننا سنصل إلى مفهوم متكامل مبني على أساس إدراك الإنسان اياه ومنضبط بضابط النص، وفي هذه الحالة ستتحقق لنا علاقة تفاعلية بين الله تعالى والإنسان، أو قل بين تشريعات

(١) صباح عباس عنوز، نهج البلاغة صوت الحقيقة، ٨٣.

الله تعالى وإدراك الإنسان.

وللوقوف على الانسجام الذي نسعى إليه بين حاكمية الله تعالى على الإنسان والكون وبين حاكمية الإنسان على الكون بفعل استخلافه للحاكم المطلق، نجد الانسجام هو عين الانسجام بين المبدأ القرآني ونظرته لفلسفة الإنسان والكون والحياة وبين التنمية البشرية التي تعد وسيلةً وهدفاً لتلك الفلسفة.

ولا يفوتنا أن نؤكد أن للقرآن الكريم مبادئ كثيرة لها ارتباط وثيق بالتنمية البشرية، إلا أن اختيار الباحث محوراً معيناً دون غيره، كان يقصد منه اختيار أنموذج واحد مع تفرعاته كافة كدليل على ما يدعيه، وذلك من خلال تسليط الضوء عليه كمثال ليس إلا، وما فكرة نظرية الخلافة الإلهية إلا انموذج جوهري حي كأحد الأفكار القرآنية التي عدت مصداقاً لذلك.

ولتكامل نظرية الخلافة الإلهية وبُعدها الفلسفي التي عدت أحد مصاديق التنمية البشرية وفق الرؤية القرآنية ولتجسيدها على أرض الواقع اقتضت حكمة الله تعالى أن تُهيئ عدة مقدمات لتفعيلها وهي:

أولاً: الجانب الفكري للنظرية القرآنية الإلهية والذي نعني به مبدأ الاستخلاف كوننا بصدد عرضه على طاولة البحث، والذي سلطنا الضوء عليه في المطلب السابق.

ثانياً: تسخير وتهيئة أدوات الاستخلاف.

ثالثاً: تطويع تلك الأدوات لتمكين الخليفة منها.

رابعاً: ترجمة مفردات المبدأ القرآني بعمارة الإنسان والأرض.

خامساً: إزالة معوقات ومصدات الإستخلاف وإصلاح ما فسد منها في حالة التخلف بغية العودة إلى دائرة نظرية الخلافة الإلهية ككل، كون نجاح هذه الفكرة الجليلة وتمامها لن تكتمل بدون تمثيل للمُستَخلَف، فهي تفتقر يقيناً إلى الحركة والجهد والعمل الجاد لتحقيق تلك النظرية الإلهية والسعي إلى إزالة العوارض والمصدات إليها بالتغيير والإصلاح.

وبما أن فكرة نظرية الخلافة الإلهية لن تتحقق بدون ما أشرنا إليه سلفاً اقتضى الأمر على الباحث أن يكمل مشواره في

عرض تمام الفكرة بعد أن ذكر أسسها ومقدماتها في المطلب السابق، إذ وجد نفسه مضطراً الى أن يقف عند هذه المفردات ولو بالصورة الإجمالية.

وبتأملنا للخطوات أعلاه يتضح منها أننا دخلنا إلى التنمية البشرية من أوسع أبوابها، كون التنمية البشرية تقتضي وجود فكرة أو نظرية، ثم وجود أدوات وسبل لتحقيق تلك النظرية، ولزم وجود غاية تكون بمثابة الدافع والحافز، كما اقتضت الضرورة ترجمة هذه الأفكار إلى خطوات إجرائية مبتغاها تحقيق رؤية تلك النظرية وفلسفتها، كان من أولوياتها الارتقاء بالإنسان من حال إلى أحسن حال.

١. مبدأ الاستخلاف

تكاد تكون نظرة الإسلام والقران الكريم إلى الإنسان نظرة تختلف تماماً عن كافة الرؤى والفلسفات الوضعية والسماوية الأخرى، فالدين الإسلامي وضع مكانةً خاصةً للإنسان ارتقت به إلى درجة استخلاف علة العلل الموجد إليه، كون الدين (هو العلاقة التفاعلية بين الله والإنسان، وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو العلة الفاعلة للدين، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [سورة التوبة: ٣٣] فإن العلة الغائية للدين إنما هي الإنسان)[٢].

فالإنسان هو الغاية الرئيسة من دين الإسلام، وفي الوقت نفسه هو الغاية لمشروع التنمية البشرية القرآنية فـ(الإنسان يحظى بعناية خاصة من الخالق تجعله في موقع متميّز على سائر المخلوقات، وهذه العناية تبدأ من أصل تكوينه واستمرت معه إلى حين اختاره خليفة الله على هذه الأرض)[٣]، فاعتبار الإنسان غاية القرآن الكريم والتنمية البشرية مبني على ضوء اعتباره خليفة الله في الأرض وفق الجعل الإلهي ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]، وبما أن هناك غايات صغرى عدت وسائل لتحقيق الغايات الكبرى والتي نعني بها بناء الإنسان والارتقاء به إلى درجة الاستخلاف لتحقيق نظرية الخلافة الإلهية، اقتضى

(٢) شفيق جرادي، مقاربات منهجية في فلسفة الدين، ٥٥.

(٣) صدر الدين القمنجي، الأسس الفلسفية للحداثة، ١٣٥.

تلازم بناء الهيكل العلوي لهذا المشروع بركيزتين أولاهما البناء الداخلي للإنسان المتمثل بإصلاح صراعاته النفسية وترويضها خدمة للمشروع كي يؤهل إلى الدرجة التي رسمها الله تعالى له والركيزة الثانية هي البناء الخارجي للهيكل العلوي المتمثل بنفس أدوات الاستخلاف المتمثلة بإقامة وترجمة حكم الله في الأرض لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[سورة الأنعام: ٥٧].

وبالعودة لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٠].

نستطيع أن نستشف منها أن الله تعالى نبّأ الملائكة بإنشاء مجتمع على الأرض، استوجب وجوده ثلاثة عناصر هي الإنسان، الأرض اوالطبيعة، العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالطبيعة وبأخيه الإنسان، مع افتراض وجود طرف رابع يُعد مقوماً من المقومات الأساسية للعلاقة الاجتماعية، على الرغم من أنه خارج إطار المجتمع، وهو العلاقة التي سميت قرآنياً بالاستخلاف[٤]، كون اعتماد هذا المبدأ يفترض وجود مستخلفٍ أيضاً، لابد من مستخلِفٍ ومستخلَفٍ عليه ومستخلَف، إذ لا استخلاف من دون مستخلِف وهو الله تعالى، والمستخلَف وهو الإنسان واخوه الإنسان، والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومَنْ عليها[٥].

وبذلك لزم لمبدأ الاستخلاف وجود المستخلِف ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ الذي اخبر الله تعالى الملائكة حين حدد المستخلَف

(٤) ذهب الباحث إلى تسمية هذا المطلب بـ(نظرية الخلافة الإلهية) التي تنضوي تحتها عدة مبادئ وخطوات منها مبدأ الاستخلاف، مبدأ التسخير، مبدأ التمكين، مبدأ عمارة الأرض، مبدأ الإصلاح، بحيث تعد جميع تلك المبادئ هي عناصر تتجانس فيما بينها لتشكل الصورة المتكاملة لنظرية الخلافة الإلهية، فهي أجزاء تشكل مجتمعة هيكل النظرية وفكرتها وأدوات تطبيقها، في حين ذهب غيره من الباحثين إلى تسمية الجزء بالكل، لا بداعي أهمية الجزء، بل لتبنيهم أن الخلافة الإلهية موقوفة على مبدأ الاستخلاف.

(٥) ظ: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ١٠٦-١٠٧.

عليه وهو ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ومَنْ عليها، وحدد وظيفة المستخلَف ﴿ خَلِيفَةً ﴾ وهو الإنسان، وكذا حين استمكنه في إدراك الحقائق والمعارف ليكون مؤهلاً وأنموذجاً حقيقياً للاستخلاف حين شاء الله بأمره ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [سورة البقرة: ٣١] فتعليم الله تعالى لآدم بعلم مباشر، يعني انه تعالى (ميزه عن سائر خلقه بهذا المقام الخطير بان علمه ما لم يعلم)[٦].

ولعل استمكان الإنسان للأرض والسماوات وتسخير ذلك من الله تعالى لها نابع من أساس عملية الاستخلاف، كون الإنسان خليفة الله تعالى من جهة، وانصياع السموات والأرض وما بينهما لقيادة الإنسان كون الموجودات أبت حمل أمانة الله تعالى وهي الخلافة، مع قبول الإنسان بحملها من جهة ثانية، فانضوت بقية الموجودات بما فيها السماوات والأرض تحت إطار الخلافة ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[سورة الأحزاب: ٧٢]، أي إن هذا العرض الإلهي للأمانة على الإنسان عرض تكويني لا عرض تشريعي، وأن هذه العطية الربانية كانت تفتيش عن الموضع المقابل لها في الطبيعة، الموضع المنسجم معها بطبيعته ليكون الإنسان هو الكائن الوحيد الذي كان بحكم تركيبته، بحكم بنيته، بحكم فطرة الله، كان منسجماً مع هذه الأمانة، وتصبح خلافة، إذاً فالعرض هنا عرض تكويني والقبول من الإنسان لذلك العقد قبول تكويني أيضاً[٧].

فالآيات السابقة قد حددت لنا معالم مبدأ استخلاف الإنسان واستمكانه الأرض والطبيعة التي سخرها الله تعالى له لغرض تفعيل وتأمين مبدأ الاستخلاف الذي هو مبدأ سماوي هدفه وغرضه ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ أي (التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة)[٨]، لقد تحدث القرآن الكريم عن عملية (تحمل الإنسان لأعباء هذه الخلافة بوصفها أمانة عظيمة

(٦) عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القران، ١، ١٨٠.

(٧) ظ: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ١١١.

(٨) الرازي، التفسير الكبير مج ١٣، ٢٥، ٢٠٤.

ينوء الكون بحملها)[٩]، وبمعنى آخر أن (الولاية الإلهية والاستكمال بحقائق الدين الحق علماً وعملاً وعرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء)[١٠].

أما قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فالمراد منه أن الإنسان (اشتمل على صلاحيتها والتهيؤ للتلبس بها على ضعفه وصغر حجمه)[١١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (الإنسان نظر إلى جانب المكلف، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها، وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: ٥][١٢]، وبغض النظر عن سلامة وصحة هذا الرأي من عدمه، إلا إنه يكاد يطابق ما نسعى إليه من نتيجة خاصة لو تأملنا بمدلول ظاهر الآية المباركة كدليل من جهة، وبحكم الدليل العقلي من جهة أخرى الذي يقر على أن اختيار الله تعالى للإنسان في حمله للأمانة واستخلافه اياه مبني على ما استعرضناه من مقدمات، منها الفطرة، العقل، المؤهلات، الإرادة والعزم، التركيبة، البنية.

وقد علق ابن عاشور على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مشيراً إلى أنها جملة استئناف بياني وليست جملة تعليلية[١٣]، وبهذا سيكون الإنسان (ظالماً لنفسه جاهلاً بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة والهلاك الدائم)[١٤].

ومن خلال التدبر في الآيات المذكورة آنفاً يُستنتج أن الإنسان قد قبل تكوينياً تحمل الأمانة فأخذ موقع الاستخلاف، وبهذا سيكون الإنسان على وفق الرؤية القرآنية أمام مفترق طريق بين أن يكون مؤهلاً قادراً لتلبس هذا النمط من الوجوب بحيث يكون أهلاً لنظرية الخلافة الإلهية انسجاماً مع فطرته وإرادة عقله ومنهج

(٩) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ١٢٧.
(١٠) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القران، ١٦، ٣٧٥.
(١١) المصدر نفسه، ١٦، ٣٧٥.
(١٢) الرازي، التفسير الكبير، مج١٣، ٢٥، ٢٠٥.
(١٣) ظ: أبن عاشور، تفسير التنوير والتحرير، مج٩، ٢٢، ١٢٩.
(١٤) ابن عاشور، تفسير التنوير والتحرير، مج٩، ٢٢، ١٣٠.

التنمية البشرية، أو أن يكون ظالماً لنفسه فاسقاً فاجراً بمخالفة أمر الله تعالى، وهذا ما وضحه الأعم الأغلب من السياق القرآني، حيث خاطب الإنسان بلزوم امتثال أمر الله تعالى والانتهاء عن نهيه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[سورة الروم: ٣٠].

فالأمر بقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ ما هو إلا أمر وجوبي أي (أقم قصدك للدين... ودم على الاستقامة)[١٥]، بينما ذكر القرآن الكريم ﴿ حَنِيفًا ۚ ﴾ إشارةً إلى أن يكون عمل الإنسان ومسعاه لله (مائلاً إليه ثابتاً عليه مستقيماً فيه لا تراجع عنه إلى غيره)[١٦].

وبمقتضى ذلك نلحظ إن الإنسان يفتقر إلى الجهاد والترويض والسعي لتحقيق مبدأ الاستخلاف وهو منهج تنموي يلزم الإنسان بالارتقاء بنفسه للوصول إلى ارادة الله سبحانه، فالآية تؤكد هذا المطلب وهي تشير مخاطبةً الإنسان أنك إذا أردت أن تعبد الله حقاً عليك أن تنحرف عن كل الضغوط والقيام بمعنى الكمال، كما تعبر الآية عن ضرورة خلوص العمل بالدين من شوائب الشرك بـ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ لأن مجرد قبول الدين لا يكفي، بل ينبغي تطبيق التوجيهات السماوية[١٧]، وبخلاف ذلك يكون الإنسان خارج دائرة الاستخلاف وحمل الأمانة، وحينذاك يعد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

من هنا نجد أن القرآن الكريم قد سلط الضوء على أهم العناصر الأربعة في عملية الاستخلاف، وهو الإنسان بعد الله تعالى، لأنه هو القادر على التأثير والتأثر وهو العنصر الأساس لتحقيق مبدأ الاستخلاف بوصفه وسيلة مهمة، فضلاً عن أنه الغاية، وبالعودة لمنهج وحركة التنمية البشرية نجد أنها تتحرك مع هذا النشاط، لذا فأن الآيات المذكورة آنفاً حاولت أن تصور الإنسان، على الرغم من أنه مأمور ومكلف بأنه قادر حر مميز لتبني مبدأ الاستخلاف، لذا

(١٥) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ٢١، ٢٥.
(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٧، ٣٨.

كرمه الله تعالى، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[سورة الإسراء: ٧٠].

ولعل انصع أوجه تكريم الإنسان هو ما عرضه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[سورة ص: ٧٢]، فالآية تحمل بين حناياها كماً هائلاً من الدلالات التي توحي برفعة وجلالة هذا المخلوق من خلال أمر الملائكة بالسجود له كدلالة للعناية الإلهية بهذا المخلوق الذي رُسمت له السيادة والريادة منذ الوهلة الأولى لخلقه، لذا قال عزّ وجل فيه ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، (وبهذه الخلافة استحق أن تسجد له الملائكة، وتدين له بالطاعة كل قوى الكون المنظور وغير المنظور)[١٨].

فبحكم نظرية الخلافة الإلهية يكون الإنسان مأموراً في مبدأ استخلاف الله في الأرض من خلال إحيائه اياها وبناء الحضارة عليها، لذا مكنه الله تعالى من الأرض وما فيها من طبيعة، وأودع فيه كافة القوى العقلية والبدنية والروحية والنفسية لامتلاك الأرض ومن عليها وتطويعها له وتنميتها بغية إشباع حاجاته وتحقيق طموحاته المشروعة، وبهذه المؤهلات نال شرف الخلافة من الله تعالى دون سائر المخلوقات ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة يونس: ١٤].

نخلص مما تقدم الى أن مبدأ الاستخلاف جزء من منظومة الخلافة الإلهية، وأن تكريم الإنسان بالاستخلاف مبني على الجعل التكويني منه سبحانه، الاستخلاف منوط بالأرض حصراً فهو مقيد بعالم الدنيا تنتهي بانتهائها أو بانتهاء قيام الإنسان عليها، وأنه منوط بالحياة لذا فهو استخلاف مؤقت ينتقل من إنسان لآخر، الاستخلاف مقيد بادراك والتزام الإنسان وعمله وحسن تدبره وتنمية قدراته.

فالاستخلاف مبدأ قرآني تنموي هدفه بناء الإنسان والارتقاء به إلى مستوى خلافة الله والتخلق بخلقه والتشبه به

(١٨) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ١٢٧.

تعالى، إذ روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تخلقوا بأخلاق الله)[١٩] ونقل عنه أيضاً أنه قال: (حسن الخلق خلق الله الأعظم)[٢٠].

فبمقتضى الاستخلاف لزم على الإنسان القيام بدوره في تنمية ذاته وما يحيط به كما أمره الله سبحانه وتعالى من خلال تنمية مكوناته الإيمانية والعملية، وما ذلك إلا عين التنمية البشرية واساسها، وهذا ما نلمسه بوضوح ونحن نتطلع إلى الحضرة الإلهية وهي تخاطب داود عليه السلام محددةً له وجوب تمثيل مبدأ خلافة الله تعالى في الأرض من خلال "الحق" الذي يمثل الجانب الإيماني (الفكري والعقائدي)، وبالسلوك القويم الذي يعد الركن الثاني لتنمية الإنسان والحياة والحضارة التي تسعى لمشروع التكامل من خلال نبذ السلوك الشاذ المقرون بالهوى، ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة ص: ٢٦]، وبهذين المعيارين سيحدد خليفة الله تعالى من عدمه، أي إن الإنسان سيكون خليفة الله على قدر قربه وبعده من الخط البياني لتمثيل الله تعالى بدرجة عالية من المناخ الإيماني والسلوكي، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ ﴾، ونستفيد من مدلول الآية المباركة أن هناك تبايناً في مرتبة تمثيل الله تعالى للخلافة التي تعد رفعتها وعلوها بقدر الارتقاء الذي يتناسب ومستوى ومقام مَنْ اُستخلِف[٢١]، كما نستفيد من مدلولها أيضاً أن الخلافة الإلهية ليست مقتصرة على الأنبياء فحسب بل كل النوع البشري دون تمييز[٢٢] كون دعوة استخلاف الله في الأرض قائمة لغير الأنبياء والأوصياء

(١٩) محسن الكاشاني، المحجة البيضاء، مج٣، ٥، ٦٤، وانظر مصادره.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) ولعل السبب في عصمة الأنبياء والأوصياء هو أنهم عليهم السلام يمثلون السفارة الإلهية النابعة من إرادة الله تعالى، وهم يمثلون عين خلافة الله في الأرض كونهم رسله إلى البشرية بما يحملون من كتب تحمل بين حناياها أحكام السماء، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

(٢٢) ظ: التحفيز الإيماني، ميثم السلمان، ٤٩.

من بقية البشر الذي قد يرقي بعض منهم بالاجتهاد والمثابرة والتنمية والتطور إلى درجة الخليفة، ليُخرّج حينئذ الكفرة والفسقة من بقية البشر عن دائرة الخلافة. لتكون هذه الخلافة امتداداً طبيعياً لتمثيل الله تعالى في الأرض، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [سورة الانبياء: ١٠٥]، وبهذا سيكون المعيار في الحضرة الإلهية هو معيار الصلاح المتمثل في موردين اثنين هما الجانب النظري الفكري "الإيمان" والجانب الإجرائي السلوكي "العمل الصالح" ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر: ٢ -٣] مما يقتضي حينئذ بناء مشروع تنموي جبار يطرق الجانب الفكري ومنظومتها كحجر أساس للتنمية البشرية وجانب سلوكي أدائي يطرق مجالات الحياة العملية المختلفة بحيث تكون التنمية البشرية في هذا المشروع بمثابة الوسيلة لتحقيق مبدأ الاستخلاف الذي هو جزء من نظرية الخلافة الإلهية.

٢. مبدأ التسخير والتمكين

إن مبدأ الاستخلاف ليس مشروعاً يفرض وجوده بعرض بنوده من دون إمكانية تمثيله على أرض الواقع ؛بل هي مجموعة من الأفكار والرؤى تنسجم عملياً مع الواقع والساحة الحياتية من جهة، من خلال مزية واعتبار الإنسان ورفعة مكانته عن بقية المخلوقات من جهة أخرى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [سورة التين: ٤].

ولكي نؤصل هذا المبدأ قرآنياً وواقعياً علينا أن ننظر إلى القرآن الكريم بما صرح به لمبدأ التسخير كمرحلة لاحقة تلي فكرة مبدأ الاستخلاف، كما علينا أن ننظر بعين الواقع إلى الطبيعة لتثبيت ذلك التأصيل القرآني لهذا المبدأ الذي اقتضت حكمة السماء أن تطوع وتسخر الأرض خدمة للإنسان بوصفه (المستأمن من قبل الله تعالى على مصادر الثروة في الكون ليدبر أمرها ويدير شأنها وفقاً للروح العامة لملكية الله تعالى)[٢٣].

(٢٣) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ٣٥.

وكأن المراد من هذه الحلقة أن ترتبط بالحلقة التي سبقتها لتشكل صورة متكاملة عن فلسفة نظرية الخلافة الإلهية، التي تعد تسخير الكون أحد أهم حلقاتها لتفعيل النظرية وتثبيت دعائمها، وتعد جميع ما سخر للإنسان هي المادة التي استأمنها الله تعالى لديه وهي الوسيلة في الوقت نفسه لبلوغ مبدأ الاستخلاف، كون التسخير يعني (قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده، كتسخير الكاتب القلم للكتابة، وكما يسخر المولى عبده والمخدوم في أن يفعل باختياره وإرادته ما يختاره ويريده المولى والمخدوم والأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيّتها الخاصة ما يريده الله من نظام يدبر به العالم الإنساني)[٢٤].

ونستطيع أن نقول أنه كما سخر الله تعالى الأرض وما فيها وما عليها كوسيلة لتحقيق مبدأ الاستخلاف للإنسان، كونها خُلقت من اجله مسخرة لتأمين حاجاته المشروعة، كذا نستطيع أن ندعي أن هذه الوظيفة تأتي بمرتبة ومنزلة أحدى وظائف التنمية البشرية حين تعد الأهداف الثانوية كوسيلة لتحقيق الأهداف والغايات الكبرى، وبما أن هدف التنمية البشرية هو الإنسان فإننا نجد أنفسنا أمام مضامين فلسفة نظرية الخلافة التي تجعل من أولوياتها الإنسان، فضلاً عن اعتبار أن البيئة التي تحيط بالإنسان هي من أهم موارد التنمية البشرية وعناصرها الأساسية، وهذا ما نلمسه جلياً في القرآن الكريم ونحن نرتل آيات التسخير، بحيث يدرك المتدبر في الآيات المباركة متانة الرابطة وقوة الانسجام بين الإنسان والطبيعة من دون عناء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[سورة الجاثية: ١٢ -١٣]، الآية المباركة تؤكد مطلب تسخير عموم ما في الكون ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ رغم أن الآية التي سبقتها قد خصصت التسخير

(٢٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٢٣٤.

مصورةً إياه في ﴿ سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ فهو (إعمام بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولاً ثم الإعمام ثانياً)[٢٥]، والمراد من معنى التسخير هو تذليل ما في السموات والأرض جميعاً، وقد أكد هذا المعنى الشيخ الطبرسي رحمه الله حينما قال: (ومعنى تسخيرها لنا أنه تعالى خلقها جميعاً لانتفاعنا بها، فهي مسخرة لنا من حيث إنا ننتفع بها على الوجه الذي نريده)[٢٦]، ومفاد الآية أن ما في الكون جميعاً خلق لأجل انتفاع الإنسان به، فسبحانه وتعالى (سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه)[٢٧].

أما السيد الطباطبائي فقد أشار إلى أن (معنى تسخيرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها وسفليها ولا يزال المجتمع البشري يتوسع في الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها والتوسل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له)[٢٨] فهو يحاول قدس سره أن يوضح قوة الرابطة بين الإنسان والكون وانسجام الحركة بينهما على أساس تسخير الكون للإنسان من جهة وضرورة رعاية الإنسان لتلك الموجودات المسخرة إليه وخدمة له، فهي محاولة علمية دقيقة لبيان معالم التنمية البشرية وفق الرؤية القرآنية ومن مبدأ التسخير.

والنكتة المهمة التي نستشفها من مدلول الآية المباركة أيضاً أن التسخير ليس موقوفاً على أساس تجسيد الاستخلاف فقط، وإنما هو دليل على رفعة هذا المخلوق ومنزلته عند الله تعالى الذي كرمه في موارد كثيرة، حين ميزه بعقله وحسن خلقه عن غيره من المخلوقات، وحين سجدت له الملائكة، وعند استخلافه على الأرض، وكرمه هنا أيضاً حين سخر له الكون، وما ذلك إلا دليل على انسجام وتكامل

(٢٥) إبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج١٠، ٢٥، ٣٣٧.
(٢٦) الطبرسي، مجمع البيان، مج٥، ٢٥، ١٢٩.
(٢٧) الرازي، التفسير الكبير، مج١٤، ٢٧، ٢٣٢.
(٢٨) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٨، ١٦٥.

النظرية القرآنية وترابط فروعها بأصولها.

ان مفاد القول أن مرحلة الاستخلاف تقتضي التسخير، لأن الإنسان بحكم أنه مخلوق من قبل المُوجد لا يستطيع أن يقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض من دون أن يُسخر له سبحانه وتعالى إمكانات تعد مقدمات وأدوات إلى تحقيق تلك الخطوة المهمة، التي هي إحدى حلقات نظرية الخلافة الإلهية، وقد يسر الله جلّ وعلاكافة المخلوقات والكائنات في الأرض للإنسان، حين قال سبحانه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[سورة لقمان: ٢٠].

فالآية المباركة تتحدث عن عامة النعم بعد أن خصصتها في آيات تلت هذه الآية، فهي تخاطب عموم البشر برغم وجود شريحة مخاطبة بعينها -على أساس أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب-(أي سخر لأجلكم ما في السماوات... وسخر ما في الأرض لأجل عباده)[٢٩]، والحق ما ذهب إليه صاحب الميزان حين قال: (المراد بتسخير السماوات والأرض للإنسان و هم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عام يدبر أمر العالم عامة والإنسان خاصة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم المحسوس بما فيه من الشعور والإرادة فقد سخر الله الكون لأجله)[٣٠].

والآية المباركة تنعطف إضافة للتسخير إلى مصداقه ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فأعظم نعمه تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وهو (ما لا يمكنكم جحده من خلقكم وإحيائكم واقداركم)[٣١]، فظاهر الآية أن مرادها أن الله تعالى قد سَخر للإنسان جميع ما في الكون وأسبغ عليه النعم الظاهرة والباطنة، أي التي يدركها الإنسان ويتحسسها والتي لا يدركها وغير ذلك لتأمين حاجاته ومتطلباته الذاتية الفردية والموضوعية الاجتماعية،

(٢٩) الرازي، التفسير الكبير، مج١٣، ٢٥، ١٣٢.

(٣٠) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٢٣٣.

(٣١) الطبرسي، مجمع البيان، مج٥، ٢١، ٦٠.

وكذا الذاتية الشخصية أو المؤسساتية الكلية، والتي تصب جميعها في تحقيق مشروع التنمية البشرية الذي هو جزء من نظرية الخلافة الإلهية، وما تسخير الكون للإنسان إلا لأنه أحد الطرق المؤدية لتحقيق مشروع التنمية الحضارية، فإن (لتسخير الموجودات السماوية والأرضية للإنسان معنىً واسعاً يشمل الأمور التي في قبضته واختياره، ويستخدمها برغبته وإرادته في طريق تحصيل منافعه ككثير من الموجودات الأرضية، كما تشمل الأمور التي ليست تحت تصرفه واختياره، لكنّها تخدم الإنسان بأمر الله جلّ وعلا)[٣٢].

فالقرآن الكريم قد عرض في عدد من الآيات التي صرحت تارة ولمحت تارة أخرى إلى مبدأ التسخير، إلى أن أهم ما في هذا المطلب ما نستفيده من مبدأ التسخير وهو:

أولاً: إن الإنسان أكمل من جميع الموجودات بدليل أن سخر له كل ما في الكون.

ثانياً: إن المقصود من التسخير هو ليس أن تكون الكائنات جميعاً تحت إمرة الإنسان، بل هي تدخل ضمن منافعه وخدمته[٣٣].

وإن ما ورد أعلاه نلتمسه واضحاً ونحن نقرأ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[سورة الرعد: ٢]، فالآية المباركة تختزل مجموعة مضامين منها ما نسعى لإثباته في بيان معالم فلسفة التسخير وأثرها في المنظومة الكونية وعلاقتها ككل بالحق سبحانه وتعالى. لأنمبدأ التسخير كما أكدنا عليه يرتبط بالله تعالى وجعله التكويني الذي فرض حاكميته سبحانه على الوجود بأسره والإنسان، فمن الواجب أن يلتفت الإنسان إلى إعداد ذاته إعداداً يتناسب مع ما كلف به كخليفة الله في الأرض قد سخر له الكون كله، من خلال تنمية مهاراته وقدراته وتصوراته للتعامل مع ما

(٣٢) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٠، ٢٤٥ -٢٤٦.

(٣٣) ظ: ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٦، ٣٩٣.

سخر الله له حتى يستطيع أن يقوم بذلك على الوجه الذي أمر سبحانه وتعالى به والارتقاء إلى مرتبة نظرية الخلافة الإلهية، وبهذا (يتكامل هذان الأصلان، كل منهما يكمّل الآخر... حاكمية الله تعالى في حياة الإنسان، وخلافة الإنسان عن الله تعالى على الأرض)[٣٤].

فلم يكن تأكيد مبدأ التسخير إلا لأنه أحد أهم الحلقات التي تشكل منظومة نظرية الخلافة الإلهية، فهونابع من واقع ما يسره الجليل جلّ وعلا للإنسان، مما يقتضي هنا أن يدرك الإنسان ضرورة حسن التعامل مع المسخرات (الطبيعية)، بحيث يكون هذا الإحسان على وفق الرؤية السماوية وبنائها الشرعي الذي شرع الوجود على أساس التكامل والعدالة، وللحفاظ على المنهج نفسه الذي اقتضى التعامل مع المخلوقات والكائنات والطبيعة على وفق هذا الذوق، الذي يعد نشاطاً يصب في نفس بناء الإنسان وتنميته، فاحترام السنة الكونية التي شرعها الله تعالى للبشر يعد إقراراً بالعبودية لله تعالى واحتراماً للإنسان وما يحيط به من سنن كونيه سخرت له، وخلقت لخدمته وتأمين حاجته وتنميته بالارتقاء به من حال إلى أحسن حال.

لذا يرى الباحث أن مخالفة الإنسان لتلك السنن ومنها الانحراف عن فلسفة التسخير ومهمتها هو خرق لالتزاماته الشرعية والعقلية والطبيعية، فسوء استخدام الإنسان للموارد الطبيعية، والعبث بتعامله مع الكائنات المختلفة، يعد إخلالاً في النظم والموازين التي تربك حركة الإنسان ونشاطه التنموي وتربك ما يحيط به من موجودات في هذا الكون ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[سورة الروم: ٤١].

أما قوله سبحانه وتعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [سورة الملك: ١٥].

فنستدل من ظاهر الآية المباركة أن الله تعالى ذلل الأرض بجعل تكويني للإنسان

(٣٤) محمد مهدي الأصفي، في رحاب القرآن، ١٣٥.

على أساس الآية التي كانت محور ومنطلق حديثنا ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: ٣٠]، فهي نفس الأرض التي ذللت وسخرت له ليقيم حدود الله سبحانه وتعالى، وبمعنى آخر كان لابد من وجود أدوات وآليات تسخر للإنسان كالأرض وبقية الكون لقيام أمره وتطبيق فصول نظرية الخلافة.

وعند تأملنا في ﴿ذَلُولًا﴾ من قوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ نستفيد أنه تعالى طوع الأرض وألانها وسهل ما فيها وما عليها للإنسان[٣٥]، وما التذليل إلا التسخير الذي نسعى لتحديده كمرحلة من مراحل نظرية الخلافة الإلهية، والدليل على أنها مسخرة للإنسان قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، هذا فضلاً عن مدلول ما تعرضنا إليه في مدلول ﴿ذَلُولًا﴾ والتي تعني أن الأرض (مطيعة مسخرة لخدمة الإنسان في جميع المجالات والظروف)[٣٦]، وهذا ما أكده صاحب الميزان حين قال: إن (تسمية الأرض ذلولاً وجعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها ويمشي فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع)[٣٧].

وبعيداً عن أبعاد الآية المباركة ومدلولاتها الواسعة التي تكاد لا تعد ولا تحصى، فإننا نحرز يقيناً أنها تصب في مصب مطلب التسخير الذي نحاول إثباته كأحد أدوات نظرية الخلافة القرآنية من جهة وكأحد مصاديق التنمية البشرية وأدواتها وفق الرؤية القرآنية، لأن (الله جعل الأرض ذلولاً بآلاف من الموافقات الضرورية لقيام الحياة)[٣٨]، والحياة كما أكدنا هي ساحة التنمية البشرية وميدانها من جهة أخرى.

(٣٥) ﴿ذَلُولًا﴾ الكلمة مشتقة من الذل وهو الهوان والانقياد... فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيهاً بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة. ظ: إبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج١٢، ٢٩، ٣٣.

(٣٦) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤، ٣٢٢.

(٣٧) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩، ٣٧٣.

(٣٨) سيد قطب، في ظلال القرآن، مج٦، ٢٩، ٣٦٣٩.

ونكتة هذه الآية المباركة هي عملية التلازم بين التسخير كأحدى حلقات نظرية الخلافة الإلهية والحلقة أو المرحلة التي تليها وترتبط بها وهي مرحلة التمكين، فآية ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ (كناية عن كونها نهاية في الذلولية)[٣٩]، فـ(بعد وصفه تعالى للأرض بأنها ذلول أمر لعباده بأن يسيروا في ﴿مَنَاكِبِهَا﴾)[٤٠] وهذا يعني أنه تعالى قد مكن الأرض للإنسان كمرحلة متطورة ومتقدمة من مرحلة التسخير، فهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [سورة نوح: ١٩ –٢٠]، فالأرض هي (كالبساط الواسع الجاهز المتوفر فيه جميع متطلباتكم المعيشية)[٤١].

أما ابن عاشور فقد أكد ما نسعى الى إثباته حين أشار إلى أن البساط: هو ما يفرش للجلوس عليه، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط لأن حجم الأرض كروي، وقد نبه على ذلك بالعلة الباعثة في قوله ﴿لَكُمْ﴾، والعلة الغائية في قوله ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ وحصل من مجموع العلتين الإشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض[٤٢]، بحيث تعد هذه السبل والطرق واسعةً مؤديةً إلى الهدف المقصود وهي الأمانة الإلهية الكبرى، (ومن أجل أن يستطيع الإنسان القيام بالأمانة الكبرى، سخر الله له الكون وقوانينه لكي يستثمرها وينتفع بها في إقامة الحياة المتحضرة، ويتحرك في ظل منهج علمي عقلي... لإحداث التغيير المطلوب والمتجدد المستمر في الحياة الإنسانية والمجال الكوني)[٤٣].

إلا أن مبدأ التسخير ليس هو المبدأ الوحيد في إتمام مفاصل نظرية الخلافة الإلهية، فالنظرية تفتقر إلى مبدأ التمكين الذي يعد مرتبة متطورة من مبدأ التسخير كما أشرنا إليه، لأن مفهوم التمكين يعني أن يشرع الإنسان عملياً بتكاليف

(٣٩) الرازي، التفسير الكبير، مج١٥، ٣٠، ٦٣.
(٤٠) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤، ٣٢٢.
(٤١) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤، ٤٦٦.
(٤٢) إبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج١٢، ٢٩، ٢٠٥.
(٤٣) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ١١٦.

الاستخلاف من خلال بسط اليد على ما مكَّنه الله تعالى من تسخير ما في الكون.

فالتمكين قد ورد في القرآن الكريم عدة مرات وبسياقات مختلفة، قال الراغب أن المكان عند أهل اللغة (الموضع الحاوي للشيء)[٤٤]، وبما أن الاستخلاف يفتقر للموضع الذي يحوي تطبيق المبدأ كان التمكين الذي هو: إقرار الشيء وتثبيته في مكان، وهو نفس ما ورد في القرآن الكريم حين نسب فعل تمكين الكون من الله عز وجل إلى الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ [سورة الاحقاف: ٢٦]، ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة القصص: ٦]، ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ ﴾ [سورة القصص: ٥٧]، وكذا قوله جل وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة يوسف: ٥٦]، فالمكان هو مقر الشيء في الأرض، والإمكان والتمكين الإقرار والتقرير في المحل، وربما يطلق المكان والمكانة لمستقر الشيء من الأنوار المعنوية كالمكانة في العالم وعند الناس، ويقال: أمكنته من الشيء[٤٥]، لذا أشار السيد الطباطبائي في مورد آخر إلى أن التمكين بإنه (الإقدار يقال: مكنت له أي أقدرته فالتمكن في الأرض القدرة على التصرف فيه بالملك كيفما شاء وأراد)[٤٦].

والناظر في موارد لفظة التمكين في القرآن الكريم، يميز بين صيغتين له: صيغة التمكين في الشيء، وصيغة تمكين الشيء. الأولى خاصة بالتمكين في الأرض، والثانية عامة تشمل تمكين الدين والقوة والسلطة والمال، وهذا يعني أن التمكين للإنسان يتم عبر مستويين:

الأول: حسي مادي، يتم فيه تمكين الإنسان من التصرف في الأرض، ولذلك جاء ذكر (المعايش) مع التمكين في الأرض﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠] أي بما يضمن استقرار الحياة ومستلزماتها وديمومتها، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

(٤٤) الراغب الاصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ٧٧٢.

(٤٥) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١١، ١١٢.

(٤٦) [سورة الاحقاف: ٢٦].

مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ [سورة الاحقاف: ٢٦]، والثاني: معنوي، يتم فيه تمكين الدين والأمن للإنسان: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [سورة النور: ٥٥]، وهذا مستوى من التمكين يحرز بموجبه الإنسان على أهم الأسس الداعمة للحياة الكريمة.

وبوجود هذين المستويين من التمكين، يرتبط المادي بالروحي في تنمية الإنسان، ولا يصبح عمار الأرض وصلاحها إلا بهما، ولعل هذا ما يفسر قصور مفهوم (التنمية البشرية) المتداول عن الإيفاء بالشروط الحقيقية لنمو المجتمعات ورقيها وأمنها المادي والروحي[٤٧].

فقد عرض القرآن الكريم عدة شواهد لتصوير مبدأ التمكين ودوره في منظومة نظرية الخلافة الإلهية، ومنها ما قاله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز وهو يصف «ذو القرنين»عليه السلام: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [سورة الكهف: ٨٤ –٨٥]، أي (منحناه سبل القوة والقدرة والحكم)[٤٨] في الأرض ليحكمها، لأن التمكين مدلوله في الآية المباركة هو (جعل الشيء ممكناً، أي راسخاً، وهو تمثيل لقوة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد... فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرف)[٤٩].

ولعل الدليل إلى ما ذهب إليه الباحث في كون مبدأ التمكين يعد بمثابة الوسيلة والأداة لتطبيق فكرة نظرية الخلافة وكذا في كون التنمية البشرية هي وسيلة لتحقيق الأهداف العليا، هو ما ورد في الآيتين المباركتين من تتابع، فالمتأمل في الآية يدرك أن الله قرن التمكين بمنته سبحانه حين قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾، والسبب (الوصلة والوسيلة فمعنى إيتائه

(٤٧) ظ: ميثاق الرابطة، جريدة الكترونية أسبوعية، د. فريدة زمرد، مفهوم التمكين في القرآن الكريم، موقع ألكتروني www. almithaq. ma/ con-tenu. aspx?C=3000

(٤٨) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧، ٥٧٣.

(٤٩) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج٧، ١٦، ٢٣.

سبباً من كل شيء أن يؤتى من كل شيء يتوصل به إلى المقاصد الهامة الحيوية ما يستعمله ويستفيد منه)[٥٠]، وبتعبير آخر (أعطيناه من كل شيء من الأمور التي يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء)[٥١] وهذا ما توضحه الآية اللاحقة ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾، فـ(الإتباع اللحوق أي لحق سبباً واتخذ وصلة وسيلة يسير بها)[٥٢].

فالإنسان الذي يسعى لتمثيل الله في الأرض عليه أن تكون إحدى أدواته أن يلتفت إلى ما سخر إليه الله تعالى ومكنه منه لينطلق به، لأنه الطريق والسبيل القصير لتحقيق مراده، كما يجب على الإنسان أن يلتفت إلى مورد مهم في تطوير وتنمية ذاته، فكما يعد استثمار الكون وعناصره مورداً لتأمين حاجات الإنسان ومتطلباته المشروعة، كذا يعد التتابع والتواصل مع تلك الأسباب والسبل هو تواصل في تنمية الإنسان وتطويره.

(٥٠) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٣٥٥.
(٥١) الرازي، التفسير الكبير، مج١١، ٢١، ١٥٠.
(٥٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٣٥٥-٣٥٦.

أما قوله تعالى في ما ورد عن قصة يوسف عليه السلام كمثال آخر: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[سورة يوسف: ٢١]، فـ(المراد من تمكين يوسف في الأرض إقراره فيه بما يقدر معه على التمتع من مزايا الحياة والتوسع فيها)[٥٣]، وهذا من عناية الله تعالى به كونه شاهد الآية المباركة بعد خروجه من غيابة الجب، وكذا ورد تمكينه في مورد آخر بعد خروجه من سجن العزيز وتنصيبه لادارة خزائن أرض مصر حيث قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[سورة يوسف: ٥٦] والعناية في الموضعين واحدة[٥٤].

نخلص مما تقدم الى أن مبدأ تسخير الطبيعة للإنسان وتمكينه منها هي الوسيلة لتحقيق نظرية الخلافة الإلهية، لأن التمكين يعني أن يعطى للإنسان (ما يستطيع بواسطته تنفيذ مآربه، وتهيئة أدوات العمل

(٥٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١١، ١١٢.
(٥٤) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١١، ١١٣.

له، ورفع الموانع وإزالتها عن طريقه)[٥٥]، فما وجود الطبيعة وعناصرها إلا خدمة للإنسان ولتنميته وتطويره بغية ارتقائه إلى مرتبة الاستخلاف، وبهذا اختار الله تعالى هذا المخلوق -الإنسان -ليقوم بأصعب وأخطر وأهم مهمة ألا وهي استخلاف الله في الأرض، حيث كلف الله تعالى الإنسان بهذا المشروع العظيم تكليفاً إلزامياً للقيام بدور الخلافة الإلهية في الأرض، كما هيأ له سبل القيام بهذه المهمة ومكّن له ما في الأرض بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٠]، أي (جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم معايش)[٥٦] أي (منحناكم الملكية والحاكمية وسلطناكم على الأرض... وأعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها)[٥٧].

والجدير بالذكر في كل ما تقدم أن أغلب الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة «التمكين» كانت تفيد إقرار التصرف وليونة الحركة بامتلاك زمام القرار في الخيار، وهذا هو أهم محور من محاور التنمية البشرية على مستوى الدراسات القرآنية وحتى الوضعية منها، لأن فلسفة التمكين في التنمية البشرية تعني توسيع قدرات الإنسان لتوسيع خياراتهم، بحيث يكون ذلك دافعاً لانفتاح آفاق حريته، لتصل العلاقة بينهما علاقة طردية، إذ بسعة خيارات الإنسان وتمكينه منها تتحقق التنمية البشرية وتتسع مساحتها، وبالعودة إلى تعريف الباحث للتنمية البشرية نجد أن مفهوم التمكين له الريادة في تحقق هدف التنمية البشرية، كون مسعاه الزيادة في سعة خيارات الإنسان وتأمين متطلباته وحاجاته المشروعة على وفق الرؤية الكونية التي ينتمي إليها[٥٨].

وبهذا نعد مبدأ التسخير ومبدأ التمكين كمبدأ الاستخلاف الذي يشكل أحد عناصر وأجزاء منظومة النظرية

(٥٥) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٤، ٣١١.
(٥٦) الرازي، التفسير الكبير، مج٧، ١٤، ٢٥.
(٥٧) ناصر مكارم شيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٤، ٣١١.
(٥٨) راجع ص: ٢٢ من الرسالة.

القرآنية للخلافة الإلهية، التي هي من التنمية البشرية في القرآن الكريم.

٣. مبدأ عمارة الأرض وإصلاحها.

وبما إننا قد فرغنا من المعنى الإجمالي لمبدأ الاستخلاف، التسخير، التمكين، والمقرونة جميعها بحمل الأمانة الإلهية من قبل الإنسان، لذا كان لزاماً على الإنسان أن يُدرك أن للأمانة ضوابط ومحددات تُلزمه الالتفات إلى عظيم ما وكل إليه وما يترتب بذلك من خطوات عملية لتمثيل لائق لمبدأ الاستخلاف وللاستفادة مما سُخر إليه ولتطويع الكون والتمكين منه، كل ذلك خدمة للشروع بأداء الأمانة الإلهية وتطبيق بنودها.

وبمقتضى ذلك نستطيع أن نقول إن الإنسان استحق شرف خلافة الله في الأرض (لأن الاستخلاف يعني الإحساس بالمسؤولية وشرف الأمانة، والإنسان هو الكائن الأرضي المتميز بالإحساس بالمسؤولية)[٥٩]، ولكي ينال الإنسان تمام هذا الشرف العظيم لزم أن يدرك حقيقة الخلافة ورفعتها من جهة، ويسعى لأقامتها من خلال اعمار الأرض وإصلاحها من جهة ثانية، بحيث يقوم على بناء وإحياء علاقة سوية مع ربه ونفسه وبقية جنسه، ويقوم بإحياء البيئة التي يعيشها وما يحيط به أيضاً، كل ذلك بمقتضى إقراره التكويني لقبول الخلافة والعبودية المتمثلة بطاعته وامتثاله لحكم الله تعالى، بحيث تعد العبودية والطاعة والوقوف عند حدود الله تعالى هي مرآة عاكسة للخلافة الإلهية.

فالخلافة تعني أن يكون الخليفة ممثلاً حقيقياً لمن اُستخلِفْ، وهذا يعني أن الإنسان في مثل هكذا حالة (هو عامل، واع، مطيع لله، يقوم في الأرض بتحقيق سلطان الله تعالى وسيادته في حياة الإنسان وتنفيذ أمره ونهيه في اعمار الإنسان، والإنسان خليفة الله، والعناصر التي تكوّن هذه الخلافة هي الوعي والإرادة والطاعة، فإذا اكتملت هذه العناصر في الإنسان كان لله تعالى خليفة في الأرض)[٦٠].

قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه

(٥٩) محمد باقر الصدر، الإسلام يقود الحياة، ٦١.

(٦٠) محمد مهدي الأصفي، في رحاب القرآن، ١٣٥.

العزيز: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[سورة هود: ٦١]، أي (ابتدأ خلقكم من الأرض... بأن مكنكم من عمارتها)[٦١]، وهذا ما ذهب إليه الرازي أيضاً حين أشار إلى أن المراد هو جعلكم عمارها كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للإنسان، وأن الإنسان قادر على ذلك، لقدرته على التصرفات، وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع[٦٢].

فآية ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ تعني إن العمارة هي (تحويل الأرض إلى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقّبة.. . والاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الإنسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها)[٦٣].

لم يكن الخطاب القرآني بغريب عن الإنسان وواقعه ومحيطه ليُدرك أنه خُلق من أديم الأرض التي استوطنها وترعرع بها ونما وتطور، كما يُدرك أن الله تعالى هو الذي أودع فيه (الطموح وأعطاه القدرة، وطوع له ما في الأرض، وتلك هي شروط عمارة الأرض)[٦٤].

فمطلع الآية المباركة ابتدأت بصيغة ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي تعد (في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهية غيره)[٦٥] ثم اقترن هذا التعليل الأمر بالعبادة أن يكون اعمار الأرض وجهاً من أوجه العبادة، فإن الله تعالى ألزم الإنسان وأمره في عمارة الأرض بما يحتاج إليه[٦٦]، كما يحرز المتدبر بوضوح (الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية، أي إن الدين لم يجعل عمارة الأرض من النوافل أو المندوبات، بل جعلها من الشعائر الواجبة، التي يثاب فاعلها، ويعاقب ويحكم بالفسق على

(٦١) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٣، ١٢، ١٧٨.
(٦٢) ظ: الرازي، التفسير الكبير، مج٩، ١٨، ١٤.
(٦٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٠، ٢٩٨.
(٦٤) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٤، ٥٦.
(٦٥) إبن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج٥، ١٢، ١٠٦.
(٦٦) ظ: مجموعة باحثين، دراسات في التنمية البشرية المستدامة، الإسلام والتنمية البشرية المستدامة -مقارنة في الأهداف والموارد، أسامة العاني، ١٥٠

ناكرها)[٦٧]، لذا نجد أن مفهوم العمارة قد استعمله القرآن الكريم نظيراً لمفهوم الاستخلاف ومبدأه، بحيث نجد كليهما يصبان في مصب نظرية الخلافة الإلهية التي تلزم الإنسان على إحياء نفسه والأرض التي يستوطنها بل عموم الكون، فاستعمار الإنسان للأرض يعني تفويضه لعمارتها وإحيائها بإنمائها وإصلاحها بحيث تهيأ لتصير قابلة للانتفاع بها، وبهذا يكون الإنسان حينئذ هو المحور الرئيس والفاعل الأساس في عمارة الأرض وتأهيلها وتهيئتها كساحة للحياة بغية تجسيد مبدأ العمارة من خلال سعة رقعة خيارات الإنسان وتأمين حاجاته المشروعة التي تعد من الأهداف الأساسية للتنمية البشرية.

فعملية إنابة الإنسان لله تعالى في الأرض وتفويضه في عماراتها واقتران عموم ذلك بالعبادة، ما هي إلا دلالة واضحة لعظيم هذا المبدأ ورفعته من بين مبادئ نظرية الخلافة الإلهية، لذا عد (إدراك حقيقية الاستخلاف الإلهي، ومعرفة دور الإنسان المسلم في تغيير الأوضاع وبناء الحضارة وصنع المستقبل من المنطلقات الأساسية للإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكاً)[٦٨]، الذي بات شرطاً لازماً للتنمية الإنسانية الفاعلة.

والدليل على ما ذهبنا إليه في اقتران مبدأ عمارة الأرض مع بقية المبادئ الأخرى وارتباطها جميعاً بمنظومة نظرية الخلافة الإلهية هو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[سورة يونس: ١٤]، فالقرآن الكريم يصرح معلناً أن الإرادة الإلهية تُلزم مَنْ استخلفه الله وأناب عنه أن يكون أهلاً للأمانة، وأن الإرادة الإلهية تترقب ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾، لأن القرآن الكريم صرح عن رفضه لمبدأ العبثية والفوضى، فهو يرفض أن يحيد الإنسان عن الانضباط والدقة والقانون والناموس الإلهي وعن علة خلقه ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥].

فالنظرة القرآنية للإنسان والكون

(٦٧) المصدر نفسه، وانظر مصادره.

(٦٨) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ٧٦.

والحياة نظرة سامية رفيعة الشأن تكاد تختلف تماماً عن جميع الرؤى الوضعية، فالتصور القرآني مبني على أنه ليس للهو وللعب وللعبث، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [سورة الدخان: ٣٨] فالآية المباركة تستوضح أن الإنسان لم يخلق سدى، ولا الكون خلق عبثاً، فلابد من أن يستثمر الإنسان حياته لتنمية ما في الكون، وهي المتمثلة في عملية اعمار الأرض وإحيائها(٦٩).

ومما لا شك فيه أن الإنسان بحكم ما تميز به من خصائص وبحكم مرتبة الاستخلاف يستطيع أن يقوم بما كلف به من وظائف لبناء هيكل صرح الحضارة السماوية في الأرض (الخلافة الإلهية)، فهو (يستطيع أن يقوم بهذا العمل الحضاري على الأرض، لأنه من اختصاص عقله وطاقته التي زود بها، ولكن في ضوء الوحي الإلهي الذي وضع الحقائق الكلية عن الوجود أمامه)(٧٠).

ومصداق ذلك ما استشهدنا به من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يونس: ١٤] والمتأمل في الآية المباركة يجد هناك مرحلة مهمة من مراحل نظرية الاستخلاف هي ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ والتي نعني بها مرحلة عمارة الأرض، ومراد الآية المباركة (أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ أتعملون خيراً أم شراً)(٧١).

أما قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [سورة القصص: ٥]، فالجعل الإلهي من تمكين المستضعفين ورثةً للأرض بإحيائها هو دليل آخر على ارتباط وتعانق الأسباب بمسبباتها وتجانس المبادئ القرآنية فيما بينها لتشكل منظومة نظرية الخلافة، وما الآية المباركة التي تلي هذه الآية إلا لتوضح وتكمل مطلب النظرية القرآنية ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة القصص: ٦]،

(٦٩) ظ: المصباح: العدد التاسع، التنمية في القرآن الكريم، محمد جواد عباس شبع.
(٧٠) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ١١٦.
(٧١) الزمخشري، الكشاف، ١، ٤٧٣.

والتي تعني تفعيل مبدأ عمارة الأرض من خلال تمكينهم الأرض، بمعنى (أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعل أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد أن كانوا تابعين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٧٢] أي (نجعلهم يحكمون في الأرض وتكون السلطة والقدرة وغيرها لهم وتحت تصرفهم)[٧٣].

لم تكن وراثة الأرض من قبل المستضعفين بالأمر اليسير ناهيك أن يكونوا بجعل من الله تعالى أئمة فيها، فالأمر يحتم إيماناً صادقاً وسلوكاً معبراً عنه، ينطق بالسعي والجهد والعزم ويوجب الإخلاص بالرغم من منة الله تعالى في تهيئة سبل الخلافة لقوله جلّ وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[سورة يونس: ١٤]، أي يجب أن يرتقي الإنسان بنفسه وينمي قابليته ويطور مؤهلاته ليصل إلى الدرجة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين والمصلحين من خلال البناء الذاتي والموضوعي لمنهج التنمية البشرية وفق الرؤية القرآنية التي تصل بالإنسان إلى مرتبة إمامة الأرض، التي تحتم على الإنسان أن ينطلق نحو الأرض وإحيائها من منطلق المسؤولية، كونه احتل منصب الإمامة وورث الأرض بما فيها، حيث يعد الإحساس بالمسؤولية من الركائز والدعائم التي تقّوم عملية البناء على المستوى الشخصي في بناء الذات أو المؤسساتي في عمارة الأرض، لذا نجد أن التنمية البشرية اهتمت بهذا الشأن وعدت عملية الخطوات الإجرائية هي نابعة من إحساس الإنسان بالمسؤولية، حتى بات الباعث وراء تنمية الإنسان لنفسه وما يحيط به، مما تطلب منه أن يطور مهاراته لتهيئة سبل التنمية والتطوير والإبداع، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣٩].

بينما نجد ما يلازم المسؤولية عزم الإنسان على العمل الصالح المطابق لواقع نظرية الخلافة الإلهية ومبادئها المتعددة، وبالعودة إلى آيات الله البينات يستوقفنا

(٧٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٦، ٩.
(٧٣) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مج٥، ٢٠، ٢٦٤.

قوله تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ التي اقترنت بخلافة الأرض كما مر ذكرها، فالعمل هو المحور الذي تدور حوله عملية التنمية البشرية، إذ أن الإنسان الذي يؤدي العمل -ناهيك عن إمامة الأرض- يحتاج إلى رياضة عقلية ونفسية وبدنية توّرث له كفاءة شخصية ومهنية تؤهله للقيام بدوره في المهام والوظائف العملية، فلم يكن اهتمام القرآن الكريم بالعمل إلا لأنه المصداق للإيمان، لذا نجد أن الأعم الأغلب من الآيات القرآنية ما إن ذكرت الإيمان إلا وتلازم معه العمل، هذا فضلاً عن الآيات التي انفردت للحث عليه سواء كان عملاً تعبدياً أو مهنياً، قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[سورة التوبة: ١٠٥].

ولا شك في أن الإنسان الذي يراد له أن يؤدي نشاطه خليفة لله تعالى لابد له أن يجتهد في عمله ويجاهد لإتقانه ويسعى لتطويره متأملاً الارتقاء به إلى المستوى الذي يليق بمن أناب عنه، وما هذا إلا من صميم عمل التنمية البشرية.

وخلاصة القول إن عمارة الأرض أو استعمارها ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ تعني طلب تعمير الأرض وإحيائها، وإن معنى العمارة فيها يتضمن نوعين من العمل هما:

أولاً: أن لا تفسد الصالح، وهو الامتناع عن الشر.

ثانياً: أن ترتقي بالصالح، وهو الإقبال على الخير(٧٤).

بينما نلاحظ أن الالتفاتة التي التفت إليها الدكتور جمال محمد أحمد عبده في غاية الدقة، فهو يرى -وهو الحق- أن ما أشار إليه الشعراوي خاص بالمصالح، فما العمل أذن إذا وجد الفاسد؟.

فقد ذهب إلى ضرورة وجود نوعين آخرين من الأنشطة والأعمال السلوكية خاصين بالفساد وهما:

أولاً: أن تصلح الفاسد، وهو الإقبال على الخير.

(٧٤) ظ: محمد متولي الشعراوي، قضايا معاصرة، ٢٣.

ثانياً: أن لا ترتقي «أي أن لا تزيد الفاسد فساداً»، وهو الامتناع من الشر.

وبذا فإن عمران الأرض يتطلب أمرين هما:

أولاً: الإقبال على الخير، بالارتقاء بالصالح، كماً ونوعاً، وبإصلاح الفاسد.

ثانياً: الامتناع من الشر، بأن لا تفسد الصالح، وبأن لا ترتقي بالفاسد، كماً أو نوعاً)[٧٥]. وعند تأملنا لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[سورة القصص: ٧٧] نلحظ أن القرآن الكريم قد حدد خصائص التنمية البشرية في آياته ومنها الآية التي نحن بصددها، حيث نلحظ تكامل المنظومة الفكرية، العدالة، التوازن، الشمولية، الواقعية، السماوية.. . وغيرها من الخصائص، إلا إننا نجد أن خصصية لزوم أو وجوب الامتثال لأمر الله تعالى المتمثل بأعمار الأرض وإصلاحها لزوماً متوازناً عادلاً متكاملاً شاملاً في نفس الوقت، فالأمر الإلهي يحدد مسار خارطة الأرض للإنسان حين (كلفه بأمانة تعمير الأرض وإقامة المجتمع الفاضل عليها)[٧٦]، وأن إحياء الإنسان الأرضَ لا يتحقق إلا من خلال وضع رؤية فلسفية تفرض أدوات البناء والإصلاح معاً.

ومن هنا سنجد أن هناك محوراً جديداً ومبدأً يَلحَقُ بركب المبادئ الأخرى التي تشكل جميعها منظومة نظرية الخلافة الإلهية، فالآية المباركة توضح هذا المحور الجديد الذي عُد بالمنظور القرآني هو نصيب الإنسان الدنيوي المُشّرع والمشروع من قبل الله تعالى، فبات هذا المحور المتمثل بالإصلاح ودرء التخلف ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾متلازماً مع البناء والإصلاح الذي عبر عنه القرآن الكريم ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

فأمر السماء بالإحسان والنهي عن الفساد هو عين عمارة الأرض وإحيائها، فالشريعة الإسلامية حريصةً أن تنتقل

(٧٥) جمال محمد أحمد عبده، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، ٢٤٨.

(٧٦) محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، ١٣١.

برؤيتها الكونية ونواميسها الشرعية إلى درجة اللزوم في التنمية، والحرمة عن التخلف، بحيث يُعد كل من الحكمين العامل المؤثر في بناء الحضارة الإنسانية على وفق الرؤية القرآنية، لذا نلحظ أن الآية ذكرت العاملين وميزت بينهما، فعطف ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ غرضه (التحذير من خلط الإنسان الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان، فالأمر بالإحسان يقتضي النهي عن الفساد)[77].

ففي ضوء أهمية مبدأ الإصلاح[78] في الرؤية القرآنية وفي نظرية الخلافة الإلهية كان اهتمام الباحث في تسليط الضوء على هذا الركن المهم والفعال في ترجمة النظرية والناطق عن رؤيتها، وقد عُد هذا المبدأ من أساسيات التنمية البشرية بكافة مجالاتها الفكرية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية وغيرها، كون المشروع الإصلاحي لم تكن مساحته منحسرةً على ميدان دون ميدان آخر، إذ يقوم هذا المبدأ على السير قُدماً نحو أهم أولوياته في تبنيه لإصلاح الفرد الذي يُعد رأسمال النظرية القرآنية، فيكون عنصراً جوهرياً ومؤثراً وعاملاً لخدمة المبادئ القيّمية السماوية والإنسانية

(٧٧) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج٨، ٢٠، ١٨٠.

(٧٨) تباين الفلاسفة والمنكرون في تحديد مبدأ الصلاح، حيث ذهبت المدرسة الأوربية عموماً ومنها المدرسة اليونانية خصوصاً، إلى إن الصلاح يتعلق بتغيير صورة الأشياء لا مادتها، بينما نجد أن الإصلاح في المرجعية الإسلامية لا يطرح فيها على هذا الشكل، لأنه لا يتعلق بالعلاقة بين الصورة والمادة، بل بحصول الفساد في الشيء، مادة وصورة، ومن ثم تؤول قضية الإصلاح فيه إلى الرجوع به إلى الحال التي كانت عليه.
فيلاحظ أن التباين انحسر في معنيين اثنين في الأعم الغالب وهما: ١ -يرجع إلى شكله الأصلي. ٢ -يجعل منه شكلاً جديداً، لكن فكرة تغير شيء إلى الأفضل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة استرجاع حالة سابقة أقل فساداً. والحق إن إزالة الفساد في المنظور الإسلامي لا يعني أبداً إرجاعه إلى السابق، لأنه قد يكون فاسداً أصلاً، فلا سابق صالح له، وقد لا يصح بإرجاعه إلى ما سبق، قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[سورة التوبة: ١٠٢].
فالقرآن الكريم ذكر شواهد كأمثلة للفساد، القتل، سفك الدماء، الزنا، فلا يمكن العودة بالحالة السابقة كمصداق لإصلاح ما فسد لهذه الحالات. ظ: إحسان الأمين، نظرية الإصلاح من القرآن الكريم، ٢٠ -٢٣.

له كفرد وللمنظومة الاجتماعية، لأن مبدأ الإصلاح قائم على أساس إصلاح الإنسان وتنميته والنهوض به، فهي غايته الكبرى وهدفه الأخير، إلا أن مفهوم الإصلاح في الرؤية القرآنية ذو نظرة شاملة على خلاف الرؤى الأخرى فهو يحاكي جانب الإيمان والأخلاق كقضية نظرية من جهة، والسلوك والمعاملات كتطبيق من جهة ثانية، بما فيها جانب المهارات والمعارف والإمكانات أيضاً، حتى بات مبدأ الصلاح كأحد أهم نظرية الخلافة الإلهية، فهو منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام وغايتهم جميعاً ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[سورة هود: ٨٨].